

بدو جبال أطلس يختلف عنه في غابات البرازيل الممطرة أوفى الريف الإنجليزي . فالقبيلة التي تعبر عن تبجيلها لمسنيها بأن تأكلهم سوف ينظر إليها شذرا من جانب جماعة أخرى تفضل أن تعبر عن احترامها لمسنيها بأن تشتري لهم بيتا صغيرا على البحر . ولا يجب أن تصيب البروفيسور ماكفى الدهشة إذا قلنا له إن فكرة الشرف تتخذ أشكالا مختلفة عند الشعوب التي تفصلها المسافات الشاسعة سواء في الجو أو الحضارة . وما يثير الدهشة أكثر هو أن تتخذ أفكار « الشرف » أية أشكال على الإطلاق . إذا ما هو الشرف ؟ وما هو الكبرياء ، والعار ، شعور الرضا ، وما هو الكرم وما هو الحب ؟ إذا كانت هذه الأشياء هي عبارة عن غرائز فما هي الغرائز ؟ إن التيار السائد في الفلسفة الحديثة هو أن نتناول الغريزة باعتبارها نهاية لأية محاولة لإرجاع دوافعنا النفسية إلى أصولها . ولكن كيف يمكن أن نفسر الدوافع النفسية وراء عمل من أعمال الإيثار ؟ إذا طرحنا هذا السؤال على فيلسوف مثل هوبز فقد يجيب أن الدافع هو احترام الذات ، ولكن ما الذي يجعل الإنسان يرفع من قدر نفسه أمام نفسه ليصبح إنساناً أفضل ؟ وما معنى أفضل ؟ فالهمجي الذي يختار أن يبجل أباه بأن يأكله بدلاً من أن يتخلص من جثة أبيه بطريقة - قد يعتبرها هو - غير كريمة كأن